

(١) التخيل

للدكتور جميل صليبا



التخيل بحسب اصطلاح الفلاسفة معان كثيرة فبعضهم (ديكارت) جملة قوة مصورة تמיד ما في الخيال من الصور وتمثله تمثيلا محسوسا . وبعضهم جملة قوة مبدعة تركيب الصور وتؤلف المعاني الجديدة وتخترع . وبعضهم جملة قوة وهمية كاذبة تنشأ عنها الأوهام والأحلام ، حتى لقد وصف تلاميذ ديكارت هذه القوة بقولهم : إنها « مجنونة الغزل » و « باعثة على الخطأ والرزيلة » أما فلاسفة العصر الحاضر فيجدون التخيل ضروريا للإنسان لأنه يخفف آلامه ويحبب إليه الحياة ويكشف له عن أسرار الكون . إن اختلاف معاني التخيل جعل أحد الفلاسفة المعاصرين يقول : إن هذه الكلمة الضرورية للغة العامة يجب أن تزول من قاموس علم النفس لكثرة معانيها^(٢) وأنه يمكن استبدالها بكلمات أوضح منها كالصورة والابداع والأحلام . على أنه لا غنى لنا عن هذا الاصطلاح لأن في كل من الصورة (التخيل التمثيلي) والابداع والأحلام شيئا من التخيل . ولنبحث الآن في التخيل البدع

التخيل المبدع

التخيل التمثيلي والتخيل البدع : الحقيقة والخيال

التخيل التمثيلي هو ذاكرة بدون عرفان ، أو هو كما قيل رجوع الصور النفسية إلى ساحة الشعور . ونحن نعلم أن الصورة هي بقاء الاحساس في الشعور بعد غياب المؤثر . أو هي ذكرى الاحساس . فإذا استرجع الإنسان صورة جبل أو نهر ولم يعرف أي جبل يرى ولا أي نهر يتصور كان تخيله تمثيلا *Imagination reproductrice* لأن الخيال يعيد ما حفظته النفس وبقى فيها بعد غياب المحسوسات . فهو إذن شبيه بالذاكرة إلا أنه كما قلنا ذاكرة بدون عرفان . إن هذا الخيال التمثيلي يقتصر كما ترى على استرجاع الصور المحفوظة في

(١) من كتاب « علم النفس » للدكتور جميل صليبا يقوم بطبعه « مكتب النشر العربي بدمشق »

(٢) غوبلو Goltot المفردات الفلسفية . مادة التخيل . الخيال بحسب الاصطلاح غير التخيل (ابن سينا)

هذا في فلسطين ومصر ، أما في بلاد فارس فكانت سائدة فيها الديانة الفارسية « الزرادشتية » بعد أن عبثت بها أيدي الأهواء والأغراض ، وبذلت فيها وزادت عليها مطامع رجال الدين يشهوهم ، وقد ظلت هذه السيادة طول حكم الدولة الساسانية ولم تحن الرأس إلا في القرن السابع بعد المسيح حين هاجمها لاسلام وهو في عنفوان شبابه ، فذابت أمام سطوته ذوبان السكر في المياه (على حد تعبير أحد المؤلفين الفرنسيين) وإن كان البعض الآخر من الباحثين يجزم بأن الديانة « الزرادشتية » لم تتلاش تماما أمام الاسلام ، وإنما تركت آثارا تذكر في بعض واحيه ، إذ ليس بعض الفرق الاسلامية إلا لونا من ألوان الديانة الفارسية ، بل ليس تعنى عمر الخيام بالخمرة وتقديس بشارين برد لئار وزندقة ابن المقفع ومرقوق الجاحظ في بعض آرائه إلا من تأيا البيانات الفارسية .

غير أن الذي لا شك فيه هو أن الاسلام قد اكتسح الديانة الزرادشتية « اكتساحا ملموسا ولم يدع لها من معتقها إلا نحو شرة آلاف نسمة في بلاد الفرس ونحو مائة ألف في بلاد الهند هم الذين أشرنا اليهم في مبدأ حديثنا عن الفرس ، وقلنا إنهم يزالون يُمرّضون جثث موتاهم للوحوش .

أما المانوية فقد انتقلت إلى أوروبا مع الرومانيين الذين كانوا ، بلاد فارس ، ثم جمعت تنتشر في جميع أجزاء الامبراطورية الغربية الرومانية ، ولكن في خنوع وإذعان للمسيحية جعلها من الأهازى أقرب منها إلى المذاهب الجديدة كأن تصرح مثلاً أن خالق الكون هو إله الشر ، وأن المسيح هو إله الخير تصمه العنيف الذي ضرب الشلل الأعلى على خيريته بتضحية لسه للصلب في خير الإنسان .

ما زالت هذه الديانة المانوية تتلاشى في المسيحية على هذا نحو حتى ابتلعها نهائيا ولم يبق لها في الوقت الحاضر من أثر ، أوروبا إلا على الآراء الاجتماعية مثل الاشتراكية والشيوعية ما شا كلهما من الآراء المتطرفة التي اعتنقتها المانوية بعد عصرها لأول ثم حملتها معها إلى أوروبا فكانت جبروتة كثير من المذاهب الاجتماعية الأوروبية في العصور الحديثة .

أن تجمع الألوان والأصوات والأوزان والاستعارات الحسية ، والأوضاع الشخصية . ومهما كان الاختراع في أوله بعيداً عن الصورة فهو دائماً يقبل المثال المجرد إلى صورة محسوسة تدل عليه وتجيئه وتخرجه من أعماق اللاشعور إلى الحياة الظاهرة الملموسة .

هل نستطيع النفس أن تبرع الصور ؟

إن أكثر علماء النفس يقولون مع « لوك » Y. Loch إن النفس عاجزة بنفسها عن إبداع أية فكرة بسيطة . فكل صورة هي إذن نسخة ، ولا تصور إلا بالاحساس . إن الأكمة لا يستطيع تصور الألوان ، والأصم لا يستطيع أن يبدع الألحان . فالتخيل ليس مبدعاً من حيث هو موجود ، بل هو مبدع من حيث هو مركب إلا أن الفكر يجمع كما قلنا في هذا التركيب عناصر مختلفة فهو يجمع الصور الشخصية إلى الفكر المجردة ، والزرات والأهواء . ولعله لا يعجز عن إبداع بعض الفكر ، أما الصور فلا يتناولها إلا عن طريق الاحساس ، وإذا تمثلها أمكنه أن يعزج بعضها ببعض ويحصل بهذه المازجة عن صور جديدة . نعم إن الأكمة لا يستطيع تخيل الألوان ، ولكن البصير يستطيع أن يتخيل ألواناً متوسطة مركبة من الألوان البسيطة فيتصور لونا بنفسجياً أكثر احمراراً من البنفسجي الطبيعي . قد يقال إن الطبيعة أغنى من الفن ، وإن اختراعات المصورين ليست إلا تقليداً لها في الطبيعة من الصور المختلفة وإن في غروب الشمس من الألوان ما لا يستطيع أعظم المصورين أن يأتي بمثله . هذا صحيح ، لأن الألوان الطبيعية أكثر تنوعاً من الألوان الفنية إلا أن أصوات الطبيعة أفقر من أصوات الفن ، وهي في العالم على نمط واحد ، كخفيف الأعصان وتفريد الطير ، وخرير الماء وقيق الضفادع . إن آلات الفن ليست من هبات الطبيعة بل هي من اختراع الانسان . نعم إن الانسان لم يتصور بوضوح لحن العود قبل اختراعه له ولكن العود لم يتكامل إلا بعد أن انتقل الانسان به من صوت إلى آخر وتخيّل في كل دور من أدوار انتقاله صوتاً أحسن وقماً وأعمق تأثيراً من الأصوات المألوفة ، فني كل درجة من درجات هذا التكامل قد تقدم الخيال وأبدع صورة جديدة لاعهد للفن بها من قبل .

جميل صليبا

« دمشق »

النفس . أما التخيل المبدع فيركب هذه الصور ويستخرج منها نماذج جديدة . أنظر إلى المصور ، إنه يرسم بريشته صورة خيالية يراها في أعماق نفسه فهو لم يسترجع صورة بسيطة محفوظة في نفسه فقط بل ركب بعض ما في هذه الصور البسيطة إلى بعض فألف منها صورة جديدة .

إلا أن هذا الفارق بين التخيل التمثيلي والتخيل المبدع ليس مطلقاً ، لأن الخيال التمثيلي لا يسترجع الصور النفسية كما هي بل يدها فيمحو بعض عناصرها ويضم إليها بعض العناصر الجديدة . وقد بينا ذلك عند البحث في الشهور وخطوط الذكريات . فالتكريات ليست صوراً مطابقة للماضي بل هي في الغالب مركبة من الماضي والحاضر معاً ، لأن النفس تنشئها إنشاءً ، والادراك ليس بسيطاً بحيث يحدث في النفس خيالا مطابقاً للشيء المدرك فقط . بل هو إنشاء صورة مركبة من عناصر نفسية متحولة . فالصورة ليست إذن خيالاً ثابتاً بل هي حقيقة متبدلة ، حتى لقد قال المسيو (لوروا) : « الادراك والتذكر كل منهما اختراع » . وعكس ذلك صحيح أيضاً . أي إن التخيل المبدع لا يبدع الصور من العدم بل يستمد عناصرها من الواقع . فالخيال إذن منسوج من الحقيقة . وقد فرقوا في الإبداع بين الصورة والمادة فقالوا : إن التخيل لا يبدع مادة جديدة بل يقتصر على جمع بعض الصور إلى بعض فيحلل ويركب ويصغر ويكبر . فهو يبدع صورة جديدة ، إلا أن مواد عمله مقتبسة كلها من الواقع . فالصورة وحدها إذن جديدة ، والتخيل مبدع بمعنى أنه يجمع العناصر بعضها إلى بعض فيؤلف منها مركبات جديدة . فكل إبداع هو في الحقيقة تركيب .

وإذا قيل : إن العقل لا يقتصر في الإبداع على جمع الصور وأنه إنما يجمع هذه الصور إلى المعاني المجردة والأحوال الانفعالية والزرات والأهواء ، قلنا مهما كان نوع التركيب ، ومهما كانت حالة العناصر فإن الإبداع ينتهي دائماً إلى الصور . قال أحد العلماء المعاصرين ما خلاصته : « المخترع شاعر حدسي . قد يقال إن هناك عقولاً منطقية ، جدلية لا تتقدم إلا بالقياس والخطاب - سيراً على طريقة (فوبان) الذي كان لا يهجم على حصن قوي إلا بعد أن يعد للأمر عدته - غير أن الأمر على خلاف ذلك ، لأن هذه العقول حدسية أيضاً . فهي تجمع ثانياً الطرائق وأصول المنطق وأحكام العقل وصور القياس بعضها إلى بعض بدلاً من